ولم أزل في الصفحة الأولى

حينما تاه مداد قلمي بين سراديب الوحدة، أيقنت أنَّ الفراغ يتمخَّض الإبداع، مثلما الزحمة تخلق الفكرة.. أو ربما تخنقها، ولمَّا وجدت نفسي أنزع عقدة جديدة من أيامي وأضمُّها إلى عقد حياتي ليصبح فيه ثلاثون حبة كان الرقم الثلاثون يلوح لي بكثير من العبر، ووجدتني أكتب..

"ها قد ضممت ثلاثين حبة في عقد حياتي، لا أدري إن كنت سأعيش مقدارها، فإن كان الله قد أمهلني طوال ثلاثين عاماً مرت، فإلام سيحتويني طوق حلمه..؟ وكم أخشى أن أجرف نفسي على شفا انحدار وأنا غارقة في طمع رحمته.

ألا تكفي ثلاثون عاماً لردع نفس تاهت في ميادين الحياة فما وجدت غير الله هادياً..؟ غابت بين نفوس بشرية متقلّبة ما بين الموت والحياة، والسفر والعودة، والهجر والحب، تتحرك بين إصبعي الرحمن، فما وجدت غير الله باقياً..!

أما آن الأوان أن أعاهدك يا رب..؟ لكنني يا رب أضعف من العهد، فالعهد يوجب الالتزام ولا أضمن لك نفسي فأنت قد ملكتها وولّيتني عليها، فإن غفلتُ عن رعايتها ضلَّتْ بغواية ذاتها وعوقبتُ بإهمالي لشطحاتها، وإن كنت قد حللت نفسي من العهد، فما أقلَّ من العزم ! وإن كنت أشدّ خوراً من العزم فما أوهن من الرغبة..! وإن عجزت عن الرغبة هل هي الأمنية إذن..؟ فما أجهل من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني.

كل عام يخال لي أني تخرجت في مدرسة الحياة ومعي حفنة مباركة من النتائج والخلاصات، لكن الحقيقة أنها حصيلة سنة واحدة فقط، وكل سنة ستحمل ذات المقدار من الخبرات الجديدة، وأنا الآن بعد ثلاثين عاماً لم آلُ جهداً خلالها أن أعتصر آلامي وخساراتي المتعددة لأشخاص وقيم وطموحات، فأستخلص من الخسارات عِبَراً ما كنت لأعيها لو أنني قرأتها يوماً من أحد الكتب، ولا كنت لأرصدها على ميدان الواقع لو أنني أصخت السمع فيها لأحد، وبعد كل ذاك.. عليّ أن أعتبر نفسي قد وضعت قدمي على مرحلة جديدة من الحياة، مرحلة تجعل الخطأ محسوباً عليّ بدقة، لأنني ما عدت أهلاً للتجارب.

لابد من قائل يقول لي : " إن المرء يموت تحت طيّ

التجربة، وقد طاش عمره إلى ما فوق الثمانين " لكنّ التجارب إن باغتتنا فهي لا تبرر فشلنا ولا تبيح لنا إنكارها إذ لم نستخلصها.

بعد أعوامي الثلاثين، أما يجب عليّ أن أصوغ مقطوعة جديدة مع نفسي ومع كل من هم حولي..؟

أما يتحتم عليّ أن أجيد حرفة التعامل مع كل شخص من خلال ما استقرأته من أعوامي الماضية..؟

ألا تمنحني الثلاثون عاماً شهادة فهم الشخصيات..؟ واستقراء نواميس الحياة التي دارت على سيدنا آدم عليه السلام، حين أخطأ بعصيان ربه وتحمّل نتيجة خطئه وعاش بقية حياته بين التوبة والعمل الصالح والدعوة إلى الواحد الغفّار، وهكذا سارت مسيرة الأنبياء من بعده، وهكذا كان وما يزال خطأ ابن آدم يجرّه إلى الظلمة والوحشة، ويبعده عن جادة الصواب، فإن أدرك مدى زاوية انحرافه أصاب عبر بوصلة قلبه بالعودة إلى الطريق القويم، وإن تجاهل تلك البوصلة وغضّ الطرف عن انحرافه متذرّعاً ببشريته القاصرة.. مضى مديراً ظهره للاتجاه المعاكس، وكل ظنه أنه يسير على ذات الدرب، وكل ظنه أنه أجاد المعرفة دون أن يثقل على ظهره عبء تأنيب الضمير، والحقيقة أنه يعود إلى نقطة البداية حيث أتى وهذا ما يجعل زاده من الخبرة محدوداً لا

يزيد، فنجده يتكلّم في الخمسين مثلما كان يتكلّم في الثلاثين، والكل يقول له : أنت كما أنت لم تتغير، فقط شاب شعرك وتجعّدت بشرتك..!!

أعلم أن الله تعالى عدل، فحين يستلّ من المرء الشباب يعوّضه بالحكمة ويجعل منه وعاء مرناً يستوعب حكمة الحياة، فيتسع الوعاء باتساع العمر، وإلا فما فائدة الوقود بدون مقود..؟ وما فائدة المقود بدون وقود..؟

وبما أنه ما زال فيّ رمق من الحياة فهذا يعني أنه لديّ من الوقود ما يعينني على تحقيق مبتغاي، ومبتغاي رضا رب العالمين..

بعد عام ونيّف من هذه الكلمات.. قرأتها.. فشعرت بالوجوم..!

لمَ نحن دائماً ندّعي الحكمة..؟ وكلما زادنا الله خبرة ازددنا يقيناً بجهل أنفسنا..!

ووجدنا رحى الأيام تطحن الجميع، ولا تترك أحداً دون أن تمرّ عليه، فلو عاش المئة لدارت عليه الدورة المئة..!!!

تمت بحمد الله.

الساعة السادسة صباحاً

٢٧ / آذار / ٢٠١٠ ميلادي

obeikandi.com